المذهب الرومانسي وأثره في الأدب العربي الحديث

خالد، ك
باحث الدكتوراه في كلية أم إي أس ممباد

د. فردوس مون
الأستاذ المساعد في كلية أم اي أس ممباد

«رومانسي رومانتيكي، إبداعي ((Romanticصفة تطلق على كلّ ما يتعلق بالنزعة الأدبية التي عاشت في أواخر القرن الثامن عشر حتّى منتصف القرن التاسع عشر، وكانت تبرز الإبداعي والتعبير الذاتي والولع بالطبيعة موضوعا للأدب ومعيارا لجدودته".[١] كلمة رومانتيزم ((Romantisme ترجع في الأصل إلى كلمة (Roman) الفرنسية، وكانت تدل في العصور الوسطى على قصة من قصص المخاطرات شعرا ونثرا، ومنذ عام ١٧٦٠م أصبحت تذكر مقابلة لكلمة كلاسيكية وكان ويليام سليجر «A.W. Shlegal » أول من بدأ بمعارضة الرومانتيكية بالكلاسيكية على أنّها اتجاه جديد في الأدب، ثم تلته مدام دي ستال."Madame de Stale" [٢]

فالرومانسية مذهب نشأ بداية في أوروبا ثورة على التقاليد والقيود القديمة طلباً للتحرر منها. وقد انتقل إلى الأدب العربي في مطلع القرن العشرين على يد خليل مطران وشعراء جماعة الديوان مثل عبدالرحمن شكري، وعباس محمود العقاد، وإبراهيم عبدالقادر المازني. وتأصل هذا الاتجاه مع شعراء المهجر وشعراء جماعة أبولو، حيث بلغ ذروته في الثلاثينيات والاربعينيات من القرن العشرين.

وقد تزامن ظهور الشعر الرومانسي في العالم العربي مع فترة تغيرات عنيفة حدثت فيه بعد الحرب العالمية الأولى وما نتج عنها من سقوط الإمبراطورية العثمانية وتحول أقاليمها إلى دول مستقلة كمصر والعراق وسورية في العشرينات من القرن العشرين

١ مجدي وهبة، كامل المهندس: معجم المصطلحات العربية في اللّغة والأدب، ط٢ ،مكتبة رياض الصلح، بيروت- لبنان، ١٩٨٤ ،ص١

٢) محفوظ كحوال: المذاهب الأدبية، (الكلاسيكية، الرومانتكية، البرناسية، الواقعية، الرمزية، الوجودية، الدادية، السوريالية)، د.ط، نوميديا للطباعة والنشر والتوزيع، قسنطينة، ٢٠٠٧م، ص٦٥

الميلادي. وبالرغم من نشوء دول مستقلة إلا أن النفوذ الإنجليزي-الفرنسي لم يزل مستمراً على هذه الدول مما أدى إلى حركات ثورية قومية كالتي حدثت في مصر عام ١٩١٩م وفي العراق عام ١٩٢٠م. وبناء على ذلك فإن الشعر الرومانسي ينتمي إلى مرحلة ما بين الحربين العالميتين في القرن العشرين التي شهدت تطلعات الشعوب العربية إلى مستقبل عظيم، إلا أن هذه الآمال والتطلعات ما لبثت أن تحولت إلى شعور بالإحباط والقلق والحيرة والتخبط الذي ألقى بأثره على الإنتاج الشعري في تلك المرحلة.

تعد الحركة الرومانسية أول موجة ذات طابع حديث أحدثت ثورة حقيقية في تطور الأدب العربي، فقد أدخلت المرونة في الشكل الشعري من حيث لغة الشعر البسيطة الإيحائية، ومن حيث التعامل مع الأوزان والقوافي مما مهد للتحول العروضي والشكلي في أواخر الأربعينات الميلادية من القرن العشرين مع قدوم ما يسمى بالشعر الحر (أو شعر التفعيلة). كما ركزت كثيراً على الموضوعات الذاتية للفرد وعواطفه فنتج التعبير عن الآمال والأزمات المؤلمة في جو من الغموض والقلق والشك والحيرة والهروب من الواقع.[٣]

وقد شهدت العقود الأولى من القرن العشرين حضوراً قوياً لأجناس أدبية جديدة كالرواية والمسرحية والقصة القصيرة نتيجة للتأثر بترجمة الأدبين الإنجليزي والفرنسي ومحاكاتهما. لكن التغيرات الشكلية التي طرأت على الأجناس الأدبية النثرية لم تطل الشعر لأنه حصن الدفاع الأول عن الذات الأدبية العربية أمام الاكتساح الأوروبي، وعلى ذلك فالشكل العام للشعر العربي تغير بوتيرة بطيئة بين ١٩١٠-١٩٤٠م، إلا أن ثورة الشعراء الرومانسيين عصفت بلغة الشعر وفرضت أسلوبها الأدبي الجديد وقاموا بتجربة أشكال جديدة من الأوزان والأشكال الشعرية وسعوا إلى الخروج على القوالب والممارسات الفكرية القديمة وتغيير الكتابة الشعرية. ونستطيع أن نقول إنه بينما قاس الإحيائيون إبداعاتهم ومواهبهم بمعايير الأدب العربي القديم، تطلع الشعراء الرومانسيون دائماً -مشاركين في هذا التوجه معاصريهم من طلائع الحركة الثقافية والسياسية- لأوروبا الليبرالية التي نادت بحرية الفرد ودوره في تقرير مصير الجماعة.[٤]

الخصائص العامة للتيار الرومانسي في العشر العربي الحديث:

لقد نتج عن تبني المنهج الرومانسي الأوروبي قيام عدة مجموعات ومدارس أدبية في الأدب العربي الحديث كجماعة الديوان ومدرسة المهجر وجماعة أبولو. وتشترك هذه الجماعات الأدبية في خصائص متعددة، وربما يتميز بعضها عن الآخر بقوة خاصية فيها

٣ الرومانسية (http://saaid.net/feraq/mthahb.htm.١٠٢)

٤ المصدر نفسه

دون الأخرى. ومن هذه الخصائص التي تبرز في الإنتاج الشعري للمذهب الرومانسي في الشعر العربي الحديث:

- الثورة على التقاليد الأدبية القديمة الموروثة ورفضها لأنها بزعمهم لا تواكب الواقع.
- استخدام اللغة الشعرية المباشرة البسيطة المرنة الخالية من التعقيد والمشحونة بالعاطفة والتي لها حس تأملي يثير المشاعر دون تكلف بلاغي، بالإضافة إلى الغياب التام للعبارات المتكلفة أو المتقعرة.
- التجديد في الشكل التقليدي للقصيدة العربية التراثية بالتصرف بحرية في أوزان القصيدة التقليدية وقوافيها. فنجدهم أحياناً يستخدمون أبياتاً شعرية بأطوال مختلفة وأوزان متعددة في قصيدة واحدة. وأحياناً يكتبون قصائد ذات أوزان شعرية بسيطة وقصيرة معتمدة على أشكال مقطعية، وأحياناً يكتبون الشعر المرسل الذي يحافظ على الوزن التقليدي مع حرية تبديل القوافي داخل القصيدة....الخ.
- الذاتية والتركيز على نفسية الفرد وما فيها من صراعات وطموحات وآمال، وبالتالي كتب الشعراء الرومانسيون عن التطلعات والأحلام الفردية.
- الإصرار على الدور الحيوي للخيال والعاطفة في الإنتاج الشعري. وقد وصل عند معظمهم إلى درجة المزيج الحاد من العاطفة والكآبة والتسيب (الاطناب) الشعري.
- التعبير عن الحرية بالتركيز على تجربة الفرد الشخصية.
- التماهي مع الطبيعة والارتماء في أحضانها.
- الإصرار على أهمية الجمال في كل الأشياء.
- العزلة والانكفاء على الذات. فتكون الرومانسية بذلك قد دشنت الشاعر المغترب في الشعر العربي الحديث.
- كتابة الشعر المليء بالضبابية والكآبة والنظرة المتشائمة في أجواء الغموض والشك والبحث والمستمر التي يخالطها أحاسيس من الحيرة المؤرقة والقلق والسخط والأسى واليأس والحزن والإحباط وخيبة الأمل.
- الإحساس الحاد بالحرمان أو بالمسافة بين الحلم والواقع وخاصة على المستويين الشخصي والاجتماعي.
- الاهتمام بتفاصيل الحياة.
- المعاناة في الحب والبحث عنه بنوعيه (العذري والصريح)، فبرزت بذلك قطع شعرية غنائية تأملية يظهر فيها التعبير عن آلام الحب إلى درجة وصلت عند بعض شعراء الرومانسية إلى الإغراق في المثالية في شعر الحب الذي تحول الإحساس به من الطهارة

والسمو إلى أبعد من الطبيعة البشرية.

- الاعتقاد بفضيلة الشاعر وخصائصه الاستثنائية بالنظر إليه على أنه شخص ملهم ذو نظرة خاصة فريدة تمكنه من معرفة حقيقة الأشياء. (برزت الخاصية مع شعراء المهجر)
- الاعتقاد بفضيلة الطبيعة البدائية وبالتالي ظهر التعبير عن صراع الريف والمدينة، باعتبار أن الريف مكان الطهارة والمدينة مأوى كل الشرور والفساد. (برزت بشكل ملفت في شعر المهجر)
- الإحساس العميق بالغربة والحنين إلى الوطن. (برزت بشكل واضح عند شعراء المهجر)
- الميل إلى العزلة الرومانسية والانسحاب من كل الاهتمامات المادية والهروب إلى الطبيعة. (تبدو واضحة جداً عند جماعة المهجر)
- البحث الحائر عن معنى الحياة. (تبدو واضحة جداً عند جماعة المهجر)
- التطرق لمواضيع ثقافية متعددة بحماسة واضحة. (تبرز بشكل واضح جداً في جماعة أبولو)
- نظرة الإحباط الناتجة عن المجتمع العربي وعدم تقديره وتقبله لعقلية الشعراء. (تبرز واضحة في جماعة أبولو)

بداية الرومانسية مع خليل مطران (١٨٧٢-١٩٤٩):

خليل مطران هو شاعر لبناني هاجر إلى مصر ولقب بشاعر القطرين. عمل في مصر بالصحافة وأصدر أولاً (المجلة المصرية) ومن ثم أصدر صحيفة يومية هي (الجوائب المصرية). كان مطران ذا ثقافة واسعة واهتمام فكري مختلف ومتشعب، وقد أبدى اهتماماً بالتجارب الشعرية المجددة والتي تأثرت بالأدب الفرنسي، ذلك الأدب الذي كان مطران نفسه مطلعاً عليه.

أكد مطران في كتاباته على ضرورة وحدة القصيدة بشكل أوضح وأكثر صراحة مما هي عليه، كما أكد على علو منزلة الشاعر على القيود الشعرية وأن بلاغة الشعر لابد من أن تخدم حاجة الشاعر وعواطفه الخاصة.

ومساهمة مطران الأهم والأكثر تأثيراً على مستقبل الشعر العربي هي تفضيله للشعر السردي الدرامي (القصة الشعرية) وهو مثال قوي على تمكن مطران ونجاحه من توظيف جنس من أجناس الشعر الأوروبي في نظم القصيدة العربية. وبالرغم من حضور

السرد في القصيدة العربية التقليدية إلا أن دوره كان ثانوياً في المواضيع التقليدية كالمديح والفخر وتوظيفه يخدم على سبيل المثال الممدوح أو فخر الشاعر، أما في قصائد مطران فالسرد هو الشكل الحقيقي للشعر (مثال قصيدة نيرون وقصيدة فنجان قهوة). ٥

وبهذه المساهمات يعد مطران المنظّر الأول للرومانسية في الشعر العربي الحديث والرمز الحقيقي لمرحلة التحول في تطور الشعر العربي الحديث.

وبالعموم فإن تجربة خليل مطران الشعرية كانت تقليدية إحيائية تمتزج بها الروح الرومانسية والتي بها سخر جزءاً مهماً من شعره ليجدد معالم طريق التطور في الشعر العربي، وقد أُثر بشكل كبير على ثلاثة من جيل الشباب المصريين: عباس العقاد، وإبراهيم المازني، وعبدالرحمن شكري.

ولقد ساهمت في تطور الشعر الرومانسي العربي ثلاث جماعات أدبية هي: الديوان والمهجر وأبولو، وتعد الأخيرتين (المهجر وأبولو) أكثر تأثيراً في تطوير الشعر الرومانسي العربي. وسنتحدث فيما يلي عن كل مجموعة بإيجاز مع التعريف بأبرز أدبائها.

(أ) شعراء جماعة الديوان:

يمثل شعراء هذه المجموعة جيل الشباب الذي واجه كثيراً من الإحباطات الاجتماعية والسياسية مع بدايات القرن العشرين.

تنسب هذه الجماعة إلى ثلاثة من الشعراء الشباب المصريين هم: عباس محمود العقاد (١٨٨٩-١٩٦٤)، وإبراهيم عبدالقادر المازني (١٨٩٠-١٩٤٩)، وعبدالرحمن شكري (١٨٨٦-١٩٥٨). ولهؤلاء الشعراء الثلاثة إنتاج شعري وآخر نثري نقدي يتضمن كتباً ومقالات. تأثر كل من العقاد والمازني وشكري بالشعر الغنائي الأوروبي (الانجليزي خاصة)؛ مما جعلهم يدافعون عن الخيال الرومانسي في القصيدة العربية، كماانتقدوا بحدة شكل ومضمون الشعر الذي كتبه الشعراء الإحيائيون وخاصة أحمد شوقي.

أطلق على هذه المجموعة اسم (الديوان) من عنوان كتاب في الأدب والنقد صدر باسمهم في القاهرة عام ١٩٢١ من جزأين هو كتاب: (الديوان: كتاب في النقد والأدب). وقد كان الكتاب في مجمله ردة فعل عنيفة على أساليب الفكر التقليدي. وقد ركز الكتاب على نقد شعر أحمد شوقي وكتابات المنفلوطي. وقد تأثرت جماعة الديوان بالشعر العباسي والشعر الانجليزي الغنائي. لقصائد المازني قيمة تاريخية لأنها تبرز المصدر المزدوج لجماعة الديوان، وهما: الشعر الغنائي الانجليزي وبعض شعراء العصر العباسي. وله ديوان صغير من جزأين.

٥ حنا فاخوري , الجامع في تاريخ الأدب العربي , دار الجيل , بيروت

يعد العقاد أكثر جماعة الديوان غزارة من حيث الإنتاج الشعري. وقد طالب بشعر يكون أكثر ذاتية وأكثر أمانة في نقل العواطف من قصائد الإحيائيين. كما دعا إلى شعر الطبيعة المخالف لشعر العقل والفكر. ويظهر أثر الرومانسيين الأوروبيين في بعض قصائده مثل قصيدة الخريف. وللعقاد في بعض قصائده الرومانسية لغة شعرية بسيطة غير متكلفة مثل قصيدة (رثاء طفلة). ومثل المازني نجد العقاد يفصح عن تأثره بشعراء العصر العباسي كابن الرومي وأبو العلاء المعري، وابن الفارض، والشعراء الغنائيون الإنجليز ك(هازليت)، و(وردزورث)،و (شيلي)، و(بايرون).

وقد كان عبدالرحمن شكري أكثر شعراء المجموعة موهبة وإبداعاً، وقد أصر على الدور الحيوي للخيال والعاطفة في الشعر وأهمية الجمال في كل الأشياء. كما رفع من مكانة الشاعر وأكد على نظرة الشاعر الفريدة التي ترى حقيقة الأشياء. وقد كان لشكري تحديداً أهمية كبرى في تقديم أفكار من الشعر الإنجليزي أثرت في تطور الشعر العربي الحديث، كما كان له إسهام حيوي في الشعر التأملي الغنائي.

(ب) شعراء مدرسة المهجر:

في القرن التاسع عشر ولأسباب اقتصادية واجتماعية مختلفة هاجر عدد كبير من الشعراء السوريين واللبنانيين إلى دول عربية وغربية وكان معظمهم من النصارى. ومن هؤلاء من هاجر إلى مصر وأغلبهم هاجر إلى أمريكا الشمالية والجنوبية واستراليا. وقد انقسم هؤلاء الشعراء المهاجرون من حيث الأهمية إلى قسمين: شعراء المهجر في أمريكا الشمالية وفي نيويورك خاصة (الرابطة القلمية)، وشعراء المهجر في أمريكا الجنوبية (العصبة الأندلسية).

الرابطة القلمية:

اجتمع عدد من هؤلاء الأدباء المهاجرين في مدينة نيويورك الأمريكية، وقد ساعد اشتراكهم في حب الأدب عامة والشعر خاصة في تشكيلهم لمجموعة متجانسة لها خواص مشتركة ساهمت في تطور الشعر الرومانسي العربي. وقد اهتمت هذه المجموعة بالصحافة فأصدروا مجلة «الفنون» (تحرير نسيب عريضة) وبعد توقفها بعامين أصدروا جريدة «السائح» (تأسيس عبدالمسيح حداد).

قرر هؤلاء الأدباء أن تنظيم أنفسهم في مجموعة ليحافظوا على حركتهم الشعرية، واستطاعوا أن يؤسسوا (الرابطة القلمية) في عام ١٩٢٠ بنيويورك برئاسة جبران خليل خبران وإدارة ميخائيل نعيمة. وأصبحت جريدة السائح منبراً لأفكار هذه المجموعة. تعد جماعة الرابطة القلمية أول مدرسة أدبية حقيقية في تاريخ الأدب العربي الحديث

ساهمت في تطور الشعر الرومانسي العربي.

يجدر التنبيه على أن شعر المهجر يشكل عهداً جديداً للشعر العربي عامة وللشعر الرومانسي خاصة. وقد اشتهرت عدة شخصيات أدبية من جماعة (الرابطة القلمية) في مدرسة المهجر في أمريكا الشمالية، من الأدباء البارزين المشهورين في الرابطة القلمية: جبران خليل جبران (١٨٨٣-١٩٣١)،هو رئيس الرابطة القلمية وأحد أهم الشخصيات المؤثرة في هذه الجماعة بسبب فكره وشخصيته الرومانسية المتمردة. و ميخائيل نعيمة (١٨٨٩-١٩٨٨) هو سكرتير ومدير (الرابطة القلمية) بنيويورك. و ناقداً ومنظراً أدبياً متمكناً. و ايليا أبو ماضي (١٨٨٩- ١٩٥٧) هو الأغزر شعراً من بين أعضاء مدرسة المهجر وأكثرهم موهبة. و نسيب عريضة (١٨٨٧-١٩٤٩) و رشيد أيوب (١٨٨١-١٩٤١).

العصبة الأندلسية:

إن المجموعة الأهم من شعراء المهجر في أمريكا الجنوبية تجمعت في (ساوباولو) في البرازيل. وقد شكلوا رابطة سميت بـ(العصبة الأندلسية) عام ١٩٣٣. ومن أهم شعراء (العصبة الأندلسية) هم: رشيد الخوري (١٨٧٧-١٩٨٤)، الذي عرف بالشاعر القروي، و إلياس فرحات (١٨٩٣-١٩٧٧) و فوزي المعلوف (١٨٩٩-١٩٣٠).

وفي عام ١٩٣٢ صدرت في القاهرة أول مجلة دورية مخصصة بكاملها للفنون والآداب وهي مجلة (أبولو). وقد كانت تصدر كل شهرين لمدة عامين متتاليين ثم أغلقت في عام ١٩٣٤. وقد نسبت إلى هذه المجلة جماعة من الشعراء لقبوا بشعراء جماعة أبولو. ومن أبرز أدباء جماعة (أبولو): أحمد زكي أبو شادي (١٨٩٢-١٩٥٥)، وهو مؤسس مجلة (أبولو) ومحررها وسكرتيرها العام، و إبراهيم ناجي (١٨٩٨-١٩٥٣)، وهو نائب رئيس جمعية أبولو ، و علي محمود طه (١٩٠٢-١٩٤٩)، و إلياس أبو شبكة (١٩٠٣-١٩٤٧) و أبو القاسم الشابي (١٩٠٩-١٩٣٤).

المصادر والمراجع:

١. أحمد حسن الزيات، تاريخ الأدب العربي، (د،ط)، دار نهضة مصر للطباعة و النّشر، القاهرة (مصر) .(د . ت)
٢. حنا فاخوري , الجامع في تاريخ الأدب العربي , دار الجيل , بيروت،
٣. أدونيس (علي أحمد سعيد)، مقدمة الشعر العربي، ط٣، دار العودة، بيروت (لبنان)، ١٩٧٩
٤. شوقي ضيف، الأدب العربي المعاصر في مصر، ط ١٠ ، دار المعارف، القاهرة (مصر)، (د،ت).
٥. شوقي ضيف، الترجمة الشخصية، ط٤ ،دار المعارف، القاهرة (مصر)، (د، ت).

٦. شوقي ضيف، الرحلات، ط٤ ،دار المعارف، القاهرة (مصر)، (د،ت) .

٧. مجدي وهبة-كامل المهندس:معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، ط ٢، مكتبة رياض الصلح، بيروت-لبنان،١

٨. محفوظ كحوال:المذاهب الادبية (كلاسيكية، الرومانتيكية، البرناسية، الواقعية، الرمزية، الوجودية، الدادية، السريالية) د ط، نوميديا للطباعة والنشر والتوزيع، قسنطينة، ٢. ،

٩. محمد غنيمي هلال: الرومانتيكية، د ط، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، د ت،

١٠. محمد غنيمي هلال: الأدب المقارن، د ط، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠٤

١١. محمد غنيمي هلال: النقد الأدبي الحديث، د ط، مصر للكباعة والنشر والتوزيع، القاهرة-مصر، ٢٠٠٤

١٢. محمد مندور: الأدب ومذاهبه، د ط، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة،.١٩٧٩

١٣. محمد مندور: محاضرات عن خليل مطران، الناشر مؤسسة هنداوي سي آي س، ٢٦/١/٢٠١٧ بتاريخ ١٠٥٨٥٩٧٠ برقم ا

١٤. نسيب نشاوي: مدخل الى دراسة المدارس الأدبية(الإتباعية، الرومانسية، الواقعية، الرمزية) د ط، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر،١٩٨٤

١٥. موسوعة الأدبية تاريخ و عصور الأدب العربي-نصوص مختارة مع التحليل-، ط١، دار الفكر اللبناني للطباعة و النشر، بيروت (لبنان)، ٢٠٠٣

١٦.) الموسوعة الثقافية العامة)، الأدب العربي، (د،ط)، دار الجيل ، بيروت (لبنان)، (د،ت) .

١٧. فايز علي:الرمزية والرومانسية في الشعر العربي com.kotobarabia.w

١٨. «الرومانسية» htm.١٠٢/http://saaid.net/feraq/mthahb

١٩. «الرابطة القلمية»، www.marefa.org

٢٠. «مدرسة الديوان»، www.marefa.org

٢١. «جمعية أبولو»، www.marefa.org

٢٢. «جبران خليل جبران»، www.aldiwan.net

٢٣. «ميخائيل نعيمة»، www.marefa.org

٢٤. «عباس محمود العقاد»، www.marefa.org

٢٥. «نبذة حول : إبراهيم عبد القادر المازني » www.adab.com

٢٦. «أحمد زكي أبو شادي»، www.marefa.org